



# النكبة المتجددة

بقلم البروفسور هالك بيرك

كتب رئيس تحرير « الاداب » ألى صديقه المستشرق الفرنسي الكبير البروفسور جاك بيرك ، الذي دأب على مناصرة قضايا العرب ، ووقف من فضيتهم الاولى وقفة مشرفة ، ولا سيما في اثناء العدوان ، كتب يعبر له عن تقدير المثقفين العرب لموقفه وفكره الحر المتجرد ، ويطلب منه الادلاء برأيه في نكبتنا الجديدة ، فبعث اليه المستشرق الكبير بهذه المقالة ، مع رسالة يختتمها بقوله : « ليس المطلوب ، حين نكتب في صالح قضية ، ان نقنع انفسنا ، بل المطلوب ان نقنع الخصوم . وهذا لا يتم من غير نقد ذاتي . وتلك هي وجهة نظر المقالة التي ابعت بها اليك » .  
وهذه هي ترجمة المقالة :

اليهود الفردية والجماعية الى فلسطين لم يسبق لها قط ، عبر القرون ، ان وضعت موضع التساؤل او الشك سيادة هذه الارض التي كانت مسلمة ، ولم تطرح مشكلات على اغلبية السكان الذين كانوا عربا . وقد عرفنا ما آل اليه ذلك منذ تصريح بلفور والانتداب البريطاني . .

ثالثا - ولكن المستوى الثالث ، الذي يتعلق به المستويان الاولان ، هو الوحيد الذي يتيح مواجهة حاسمة للمشكلة . فحتى لو افترضنا ان الذين يتقابلون في فلسطين هم الهولنديون مثلا والاييرايون ، بدلا من اليهود والعرب ، فان المشكلة ، في جوهرها ، لن تتغير من جراء ذلك . ان هذه القضية لا تختلف في ذاتها عن جميع القضايا التي كان قد طرحها في العالم ، في العهد الامبريالي ، استعمال علاقات القوة وضروب اللامساواة المالية والتكنولوجية بين الشعوب لتوسع بعضها على حساب الاخرى . فاذا اعتبرنا العلاقات الحالية بين اسرائيل والبلاد العربية حالة شبيهة بجميع تلك الحالات التي تواجه فيها الغرب وشعوب آسيا وافريقيا ، في الحقبة المعاصرة ، فان المشكلة تأخذ آنذاك بعدها الحقيقي . والحال انه اذا ادرك كثير من شعوب العالم الثالث هذا البعد ادراكا صحيحا وعادلا ، سواء اتبعها في ذلك حكوماتها ام لم تتبعها ، واذا كانت الاشتراكية من جراء ذلك تدعم القضية العربية ، لا قضية عربية وانما لانها تتصل بالصراع العالمي بين المستغلين والمستغلين وبين الوفرة والغنى ، فان اشد التناقضات والتدخلات تظل قائمة ، وهي تستغل على الفور للبقاء على مواقف القوة . من ذلك مثلا ان اسرائيل تمثل نفسها عن رضى كشعب

ان هذه المحنة الجديدة التي تثقل على العالم العربي ، وهي الثالثة في عشرين عاما ، تقتضي تعبئة للطاقات وللعقل . ولعل دروب الخلاص لم ترتبط ، كما ترتبط اليوم مثل هذا الارتباط الوثيق ، بالتحليل الذي يترتب على المفكرين العرب ان يكرسوا له كل جهودهم ، والى جانبهم جميع الذين يجهدون ، في العالم ، لاستخلاص حل يقوم على تقدير صحيح للمشكلة .

ان بالامكان مواجهة النزاع العربي الاسرائيلي على ثلاثة مستويات :

اولا - بصفته نزاعا تافها شبيها بنزاعات كثيرة تخرب العالم ، ويتدارسه اخصائيو العلوم السياسية وخبراء الحرب ، ان لم يكن تجار المدافع . ووجهة النظر هذه ، التي هي موضوع المساومات الاكثر اثارا للشبهات ، لا تفضي الى شيء . ومن المؤسف ان هذه هي الواجهة التي توقفت عندها ، حتى الان ، منظمة الامم المتحدة !

ثانيا - مستوى اخر ، اعمق جسدا من المستوى الاول ، هو مستوى الصلات الخاصة بين ارض فلسطين واليهود من جهة ، والغرب من جهة اخرى . وهذه الصلات هي نفسها قابلة لان تفسر اما بالرجوع الى الاديان السماوية الثلاثة والى مشاعر التقديس المتصلة بها ، واما بالرجوع الى المواقف التاريخية . ومن المؤكد ان لليهود والعرب مع فلسطين صلات عميقة عكرتها الصهيونية منذ نصف قرن . ولن يعود السلام ، ولن تتحقق امكانات التعايش الا يوم ينتهي هذا التعكير . ان الصهيونية تبدو وكأنها النقل الشاذ للمعطيات الدينية الجوهر الى تطلعات ذات جذر مرتبط بالارض . وهذا صحيح جدا الى حد ان عودة

كشفت الاحداث الاخيرة الوانا من الضعف كان المفروض بالمحن السابقة ان تحول دون عودتها . لقد تم الخلط ، مرة اخرى ، بين الواقع والحلم . ولقد فكروا بان عداله قضية ما تكفي لكي تفرض بذاتها نجاح هذه القضية ، في حين ان العدالة والظلم لا يمكن ، في عالم التاريخ ، ان يفرضا نفسهما بغير اللجوء الى سلاح الواقع . ولقد تكلموا بلغتهم الخاصة ، من غير اهتمام بان يفهم هذه اللغة الاخرون . وهكذا تركوا الميدان خاليا لدعايات الخصم . لقد استهانوا بصعوبة المشكلة ، ومع ذلك فان هذه العالمية هي التي تشكل ، في رأيي ، الميزة الرئيسية للقضية العربية ، وهي التي ستجعلها تنتصر في اخر المطاف .

ان ثورة مشروعة ضد الوان الظلم التي مورست ، وان ارتدادا مشروعا على الذات قد قادا عددا كبيرا من العرب الى اهمال هذا الفهم للشعوب الاخرى التي كانت قد انتصرت لهم ، في عهودهم الجيدة ، على قيصر وكسرى . والحال انه اذا كان صحيحا ان ليس ثمة « تعصير » ممكن الا ان يكون قائما على « اصالة » (1) ، فان هذه الاصالة التي تجعلك تجد حقيقة نفسك تجعلك تعترف كذلك بحقيقة العالم الذي يعيش حولك . ان المرء لا يستطيع اليوم ان يكون ذاته برغم الاخرين ، بل هو ذاته بالآخرين . والعكس كذلك صحيح .

ربما بدا خيالا واهما ربط منظورات للعمل ، تتطلبها نكية من اشد النكيات الحاحا ، بمراجعات اساسية . ولكن اليس ذلك هو الشرط الاول لمواجهه ثورية لا والحق انه ان كان ثمة ما تعلمه كاتب هذه الاسطر من اصدقائه العرب ، فهو انه ليس ثمة من عمل صحيح لا يركز على « اصول » (2) .

واذن ، فان العرب ، بفضل نقد لدواتهم لا هوادة فيه ، وبفضل امانة متزايدة لانفسهم وللقيم الكونية في وقت واحد ، سوف يستطيعون ان يجدوا العلاج لنكبتهم التي لا يستحقونها .

جاك بيرك

باديس

(1) و (2) وردتا بالنص العربي في الاصل الفرنسي .

لجميع مطبوعاتكم :



بيروت - تلفون : ٢٣٠٥١٢

صغير تحاصره قوى هائلة تحسده على عمه وعلى نجاحه . والحق ان المؤرخ العادل اذا لم يكن عليه ان يغبن الجهود التي يبذلها الاستعمار الصهيوني لاستثمار البلاد ، فان بوسعه ان يدلي بالادعاء نفسه عن استعمار فرنسا للجزائر . ان هذه الجهود ، في الحالتين كليهما ، ما كان لها ان تفضي الى شيء لولا ضغط الاجنبي ولولا مساعدة خارجية هائلة تجيء من جهة واحدة . ثم ان اسرائيل تحدثت كذلك عن الالام التي عاناها اليهود في اوربا ايام هتلر . والحق ان هذه الالام كانت مريعة ، وهي تستحق التعويض من قبل المسؤولين عنها ، ولكن هؤلاء المسؤولين لم يكونوا في حال من الاحوال هم العرب . بل العكس الان هو الصحيح : فان العرب في فلسطين ، في عام ١٩٦٧ كما في عام ١٩٤٨ ، هم الذين احتلت بلادهم ، وانتزعت منهم اراضيهم واموالهم ، ونفوا . وقد اشرت من قبل الى الخلط المؤذي الذي يكمن في تحويل مشاعر دينية تستحق الاحترام او عواطف حين تجاه ارض موعودة الى مطامع توسعية والى سياسة قوة ، باسم الصهيونية .

ان خلطا من هذا النوع هو الذي دفع قسما من المثقفين الفرنسيين ، على راسهم سارتر ، الى الاعتقاد بان من واجبهم ، في بدء النزاع ، ان يقدموا دعما غير مشروط لاسرائيل ، هم الذين مثلوا دورا واعيا في حرب الجزائر . ولكن قسما اخر من مثقفينا كانوا من حسن الحظ اكثر تبصرا وادراكا . فقد ذهبوا ، وهم الذين يرفضون الامر الواقع لعام ١٩٤٨ ، الى انه لن يكون ثمة حل ، ولو باحتلال الارض ، الا لقاء تسوية جذرية ، وان هذه التسوية لا يمكن ان تتم الا شريطة الاعتراف المسبق ببعض المبادئ . واحد هذه المبادئ دفع التعويضات المتوجبة للمنفيين عام ١٩٤٨ ، وهو اليوم اكثر الحاحا واقلافا بالنسبة لمنفيي ١٩٦٧ . وثمة مبدء اخر هو مبدء وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين . فان اي سلام لن يكون ممكنا ما ظلت اسرائيل تعرض نفسها كوطن يستقبل جميع عناصر اليهودية العالمية ، وما بقيت كذلك راس جسر للمصالح العالمية على الشاطئ الاسيوي . فليس بوسع اسرائيل اذن ان تتطلب ان يقبلها جيرانها على انهبيا بلد شبيه بسائر البلاد ، ما دامت تقوم على هذا التناقض المزدوج .

ولكن اذا كان هذا هو تناقض اسرائيل الداخلي ، وايا ما كانت ضروب التواطؤ او اشكال العطف التي افادت منها طوال تاريخها القصير ، ولا سيما في النزاع الاخير ، فان على العرب ان يقتنعوا بان مصير الصراع وحل المشكلة يتوقفان على ما يفعلونه هم انفسهم . ولا يعني هذا ان اقترح عليهم عمالا ينبغي على أي حال ان تكون مستوحاة من تحليل صحيح للاوضاع ، وانما يهمني ان الفت انتباههم الى ضرورة حل تناقضاتهم الخاصة . لقد